

الهجرات الآشورية وإسهاماتها السياسية في بلاد الرافدين (2000-612 ق.م)

Assyrian migrations and their political contributions in Mesopotamia (2000-612 B.C)

الطيب زين العابدين

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 02 (الجزائر)
zinelabidine28@gmail.com

ملخص:	معلومات المقال
عاش الآشوريون عبر الجزء الأكبر من تاريخهم في بلاد النهرين على شكل اتحاد من دول المدن غير وثيق الروابط، إذ كان لهم الدّراية الكافية بأنّ المدينة لا يمكن أن تعيش في فراغ سياسي، ولا بدا أن يكون لها ظهور سياسي يمدّها بالقوة والبقاء والمحافظة على ديمومتها كإقليم، وبهذا الشكل عمل قادتها وحكام هذه الدويلات محاولات لتوحيدها في دولة مركزية واحدة، إلا أنّ أغلب هذه المحاولات كانت تنتهي بالإخفاق والفشل، وبالتالي لابد من صياغة واقع لسياسي يهدف إلى تكوين حالة من الخضوع والإذعان من خلال فرض نظام وأفكار ولغة معينة مع معتقدات سياسية، إذ ليس الهدف السياسي منها الهيمنة والسلطة أو النفوذ فحسب، وإنما إدماج مجتمع الرافدين في إطار النظام السياسي القائم آنذاك، والذي يقوم على محاربة وإحباط أشكال التمردات الداخلية والمؤامرات الخارجية من خلال استخدام لغة السلاح لضمان وتحقيق الوحدة واستمراريتها.	تاريخ الارسال: 2020/09/22 تاريخ القبول: 2020/11/30 تاريخ النشر: 2020/12/09 الكلمات المفتاحية: ✓ بلاد النهرين ✓ الآشوريون ✓ الهجرات ✓ النظام السياسي
Abstract:	Article info
The Assyrians lived through much of their history in Mesopotamia in the form of a union of unconnected city states, They knew enough that the city could not live in a political vacuum, It must not have a political support to provide it with strength, survival and the preservation of its continuity as a region, In this way, the leaders and rulers of these mini-states acted in an attempt to unite them in one central state, But most of these attempts ended in failure and failure, Therefore, it must before mulated as a political reality that aims to form a state of submission through the imposition of a specific system, ideas, language and political beliefs, The political goal is not only dominance, power, or influence, but the integration of Mesopotamia society into the existing political system, which is based on fighting and thwarting the forms of internal rebellion and external plots by using the language of arms to ensure unity and continuity.	Received :22/09/2020 Accepted:30/11/2020 Publication:09/12/2020 Key words: ✓ Mesopotamia ✓ Assyrians ✓ migrations ✓ Assyrian politics

مقدمة:

إذا كانت الدولة الآشورية من الناحية السياسية أقوى شعوب منطقة الشرق الأدنى القديم، فإن المتتبع لتاريخهم السياسي بدءاً من ظهورهم على الساحة المحلية في شمال بلاد النهرين، وامتداد حكمهم الطويل على المنطقة بأكملها يدرك أن تأثيرهم السياسي سيظل الرائد تاريخياً من حيث المظهر الداخلي، فمجال البحث حول تاريخهم السياسي وامتداد نفوذهم على مختلف الأقاليم، من خلال مركزة الحكم، يجعلنا نؤمن بأنها من أقوى دول العالم في الشرق الأدنى، إذ يلاحظ في الموقع الجغرافي الذي تمتعت به داخل المنطقة، والدول المعاصرة لها، والظروف المحيطة بها، قد جعلها تُراعي توجهها السياسي المرتبط بالوحدة، وحتى تفرض كيانها وسيادتها، فالواجب عليها أيضاً أن تفرض لغتها ومعتقداتها الديني تبعاً للرؤية السياسية الآشورية وعلى امتداد تاريخها الطويل بالمنطقة الرافدية. وانطلاقاً مما سبق نجد أنفسنا أمام إشكالية تتمحور حول مدى فاعلية مختلف المستجدات التي أسهم بها الآشوريين على الساحة السياسية في بلاد النهرين؟

2. التسمية

أُطلق اسم "أشور" في النصوص القديمة على كل من المدينة والإله والدولة نفسها¹، وقد وردت هذه الكلمة في المصادر الآرامية والعبرية بصيغة "أثور"، أما في المصادر السومرية فقد عرفت بلاد الآشوريين باسم "مات آشور"²، أما مصطلح "السوبارتو" بشمال بلاد الرافدين فقد كان يطلق على موطن الآشوريين لكن قبل تواجدهم واستقرارهم في أراضيها³.

3. مصدر الهجرات الآشورية

الآشوريون في الأصل فرع من الأقوام السامية⁴ التي هاجرت من جزيرة العرب على ما يقول جمهور الباحثين، إلا أنهم لم يأتوا من موطنهم الأصلي إلى شمال العراق مباشرة، وإنما حلّوا في موطن مؤقت، ثم انتقلوا منها إلى البلاد التي صارت فيما بعد موطناً ثابتاً لهم، وحبّتهم في ذلك أن الآشوريين جاؤوا من جنوب أرض بابل، وربما يكون ذلك في العهد الأكادي معتمدين في ذلك على التقارب بين اللغتين الآشورية والبابلية⁵.

4. الموقع الجيوسياسي

حدّد موقعها في المصادر التاريخية من أمثال هيرودت الذي استخدمه كمدلول لفظي شامل عندما قال "في بلاد آشور مدناً كثيرة...، ومنها بابل الأكثر شهرة والأقوى"⁶، بينما يرى سترابون أن "البلاد التي تحاذي فارس وسوسة هي إقليم آشور"⁷، وتعتبر هذه المدينة أولى عواصم الآشوريين، إذ أُقيمت فوق ربوة صخرية، تخف بها مياه نهر دجلة التي كانت بمثابة حماية طبيعية لها، وربما منذ الألف الثالث قبل

الميلاد، وتعرف خرائبها اليوم باسم "القلعة" أو "قلعة شرقاط" وتقع على مبعدة 96 كلم جنوب مدينة الموصل الحالية⁸.

ويتكون الإقليم الشمالي الأشوري من الوديان التي تحيط بنهري دجلة والفرات وفروعهما، وتحيط به من الناحية الغربية سلسلة جبال "الطورال" الممتدة من بلاد الأناضول حتى الخليج الفارسي ومن ناحية الشرق تحده سلسلة جبال "زاجروس"⁹، ومن الطبيعي جداً أن تحتل الأقسام الجبلية إلى الشمال والشمال الشرقي من بلاد النهرين اهتماماً كبيراً من قبل العراقيين القدماء لكونها موطن الإنسان الأولى قبل اكتشاف الزراعة، ولأنها أيضاً مناطق وفيرة الخيرات من محاصيل نباتية وأخشاب وحجارة صلبة وحيوانات متميزة، وغير ذلك من مواد ومنتجات لا يجد العراقي نضيراً لها في بيئة وديان الأنهار والسهول الرسوبية لجنوبي العراق القديم، كما تحتل هذه الأقسام الشمالية من الطرق أهمية استثنائية، لأنها تكشف عن منافذ وممرات توصل إلى أعماق المناطق التي تقع خلفها، لما تحتويه من ثروات وأقوام وتجارب، وبخاصة في بلادي فارس والأناضول¹⁰.

والى الشمال من بلاد الرافدين أيضاً أنهار أخرى هامة وهي: ديالي والزبان الكبير والصغير والخابور والبالخ، وقد شكلت وحدة سياسية واقتصادية مستقلة عن الوحدات الأخرى، قامت فيها دولة آشور إلى جانب دولة بابل في الجنوب¹¹.

5. الدول المعاصرة للأشوريين

عاصرت آشور منذ العصور المبكرة أواخر عصر الأسرات السومرية، وعاشت في تلك الفترة مثل باقي دويلات المدن، كما خضعت للأكاديين، ومن بعدهم الجوتيين، وانتهزت آشور فرصة العصر الجوتي المظلم في الجنوب لتستقل لفترة وجيزة، اعتماداً على ما ورد في جداول الملوك الأشوريين لأسماء حكام لا يعرف عنهم الكثير وأغلب الظن أنهم عاصروا الجوتيين، وفي عصر أسرة "أور الثالثة" ضمت آشور إلى آخر سلالة سومرية¹².

6. السياسة الأشورية في بلاد الرافدين

من الصعوبة على الدارس لحضارة وادي الرافدين أن يفصل التاريخ الأشوري عن التاريخ العام لحضارة بلاد النهرين، نظراً للتماثل الكبير بين مختلف المظاهر الحضارية لهذا البلد، لأن دراسة الحقبة المبكرة من تاريخ آشور تشكل ضرورة ملحة من أجل استيعاب أصولها الأولى، غير أن دراسة هذه الحقبة تصطدم بعقبات كثيرة، فعلى العكس من الجنوب الذي وصلنا منه كتابات غزيرة سواء نصوص تاريخية (قوائم ملوك، كتابات ملكية، نصوص نذرية)، أو نصوص أدبية (أساطير، ملاحم، مراثي، أدب مدرسي)، أو نصوص قانونية مثل (العقود الاقتصادية، عقود زواج، نصوص إصلاحات)، أو نصوص دينية (تراتيل،

أدعية، قوائم بأسماء الآلهة)، وهي بدورها تقدم مادة غنية للباحث في العصور المبكرة، وربما قد يعود غياب النقوش والتماثيل الآشورية إلى عدم معرفة السّكان بالكتابة، فإنّ محاولة الاعتماد على المادة النصّية القادمة من الجنوب لمعرفة تاريخ آشور مخيبة للآمال، فالوثائق السومرية لا تقدم لنا معلومات ذات شأن، ولا يمكن من خلالها رسم حتى تصور أولي عن هذه المنطقة¹³.

ولما كانت الحقبة التي عاشتها بلاد آشور طويلة الأمد (2000-612 ق.م) تخلّلتها عدة تقلّبات، فقد ارتأى الباحثون تقسيمها إلى ثلاثة عصور رئيسية:

-العصر الآشوري القديم (2000-1500 ق.م).

-العصر الآشوري الوسيط (1500-911 ق.م).

-العصر الآشوري الحديث (911-612 ق.م)¹⁴.

كان المجتمع الآشوري القديم من نهاية الألف الثالث وبعض قرون الألف الثانية مجتمعا عبودياً، سميت دولته "مشاعة آشور" وعلى رأسها "إيشاكو" باعتباره الحاكم، ويُعزى طغيان العبودية فيها بسبب الموظفين الكبار والتجار الذين ظهروا بعد تشكل مملكة آشور وبالتالي فالتطور المبكر للتجارة الآشورية كان بسبب أهمية موقعها، فقد كانت بلاد الرافدين السفلى تصلها المعادن والكثير من الأخشاب من آسيا الصغرى ومن أرمينيا الحالية عن طرق آشور، نتج عنه نمو حاد في مركزها وارتفاع شأنها¹⁵.

بعد سقوط "أور" عادت الأحوال السياسية كما كانت عليه خلال عصر دويلات المدن السومرية، وانتهاز الآشوريون فرصة الفوضى في الجنوب، ليكوّنوا أسرة حاكمة جديدة في الشمال، ويسمى عصرها اصطلاحاً باسم العصر الآشوري القديم¹⁶.

كان أمراء آشور خلال تلك الحقبة يفكرون في كيفية إنشاء إمبراطورية ينطلقون بها من عاصمتهم آشور¹⁷ حيث بدأت في التوسع إلى أن شملت مدناً صغيرة في بلاد آشور نفسها خلال عصر مؤسسها "بوزور آشور الأول"، وابنه "شالوم أخوم"، الذي استهلك كل وقته للحفاظ على ملك والده، ثم اعتلى العرش "إيلوشوما" (1825-1855 ق.م) الذي اصطدم عسكرياً مع مؤسس المملكة البابلية الأولى، ثم تلاه ثلاثة ملوك على التوالي وهم "أري شوم - إيكونوم" والملك الشهير المعروف باسم "شاروكين الأول" أو "سرجون الآشوري"، تمييزاً له عن "سرجون الأكادي"، حيث أصبح الملوك اللاحقون يقدّسونه لدرجة أنهم وضعوه في مصاف الآلهة¹⁸ تماماً كما فعل الأكاديون مع سرجون بعد مماته¹⁹.

كان ملوك آشور يحملون أسماء أكادية بحتة ومن أهمهم "إيلو - شوما" الذي كان هدفه توسيع المملكة، فتوغل في الجنوب باتجاه المدن السومرية وخاض حرباً ضد مملكة بابل محققاً انتصاراً عليها وتوسع في الشمال حتى "تينوى"²⁰، وفي المقابل مرّت السلطة الآشورية بمرحلة ضعف خلال عهود خلفاء

"بوزور آشور الثاني" و"تارام سن" و"أري شوم الثاني"، وكان أشهرهم في نفس الوقت شمشي حدد الأول²¹ الذي استطاع مد نفوذه باتجاه الجنوب الغربي، حيث ضمّ مدينة ماري لكن لفترة قصيرة، بسبب ظهور أسرة بابل الأولى التي وضعت حداً لطموحاته التوسعية²².

إنّ يسود التاريخ الآشوري تباين واضح، حيث تختلف الفترات الواقعة قبل العصر المظلم وبعده في مجالات أساسية، فقد فرضت مجموعة من التأثيرات الأجنبية الهامة على التقاليد الآشورية حينما خرجت البلاد من تلك القرون المظلمة المحافظة على لغتها ونظمها الاجتماعية، فضلاً عن التصور الآشوري للملوكية والحياة الدينية ومنها الأسلوب السياسي للآشوريين²³، إذ كان الصراع السياسي والتنافس على السلطة على أشده بين دويلات العصر البابلي القديم للسيطرة على المنطقة وتوحيدها لإعادة الحكم المركزي في بلاد الرافدين، حيث كلما نمت قوة إحدى الدويلات وتعاظمت وضمت إليها عدداً من المدن والدويلات المجاورة سارعت الدويلات الأخرى لإقامة الأحلاف العسكرية للوقوف أمامها والتصدي لها وبالتالي تحجيم خطرهما، وكان لشخصية الملوك والحكام الذين كان جلهم من الأقوام الأمورية القادمة من الغرب أثر كبير في إقامة الأحلاف والانضمام إلى هذا الحلف أو ذاك، حيث كان هناك أكثر من حلف واحد يتوزع على المنطقة حسبما أوردته الرسائل المكتشفة في ماري²⁴، والتي جاء في محتواها بأنه "لا يوجد هناك ملك هو الأقوى وحده، فهناك عشرة أو خمسة عشر ملكاً يتبعون "حمورابي" ملك بابل، والعدد نفسه يتبع "ريم سين" ملك لارسا، والعدد نفسه يتبع "ايبال - بيل" ملك أشنونا، والعدد نفسه يتبع "إبي - إيل" ملك قطنا، وعشرون ملكاً يتبعون "يارم - لم" ملك يمخد"²⁵.

يرى محمود شاكر بأن تعاضد الدولة الآشورية مرده إلى عدة عوامل داخلية وخارجية يستطع الباحث الحديث في عصرنا التعرف على البعض منها، ويبقى البعض الآخر خافياً عنه، فمن العوامل الخارجية التي ساعدت الآشوريين على تأسيس حكمهم الظروف السياسية التي كان يمر بها الشرق الأدنى، فقد كانت الدولة الحثية والمملكة المصرية تتقاسم النفوذ، إضافة إلى السيطرة الكاشية²⁶ في بلاد بابل، وكذلك تزايد ضغوط القبائل الجبلية والقبائل الأرامية، مما منع الآشوريين من توسيع نفوذهم وإقامة دولة قوية، لكنه يضيف قائلاً بأن السياسة الحكيمة التي اتبعها الملوك الآشوريين في الداخل والخارج والتنفيذ الرائع الذي حققه الفرد الآشوري لتلك السياسة أكبر الأثر في تحقيق الانتصارات المتتالية، فقد اتبع الآشوريون سياسة جديدة في تنظيم البلاد وتقسيمها إلى أقاليم ووحدات إدارية أصغر وأصغر يُشرف على إدارة كل منها حاكم آشوري يرتبط به عدد من الموظفين الثانويين ويرتبط بالسلطة المركزية التي كانت ترسم الخطوط العامة للسياسة الواجب اتباعها وتعطيه حرية التحرك لتنفيذ تلك السياسة²⁷.

رغم ما تخلّل حقبة العصر الآشوري بمراحله الثلاث (2000-612 ق.م) من أحداث، فقد استطاع الآشوريون بسط نفوذهم على بلاد الرافدين، موحدّين بذلك بين شطريه الشمالي والجنوبي في شكل دولة واحدة، ولم يكن هذا الأمر سوى إضافة للمحاولات الوحدوية للعديد من الحكام²⁸ أمثال "لوكال زاكيزي"²⁹ وسرجون الأكادي وحمورابي وغيرهم³⁰، وبذلك كان الملك في بلاد آشور هو رأس الحكومة المركزية، يُدير البلاد من قصره³¹ بل ويعتبر نفسه الملك والكاهن الأكبر والقائد الأعلى للجيش³²، وكانت السياسة الآشورية المتّبعة في إدارة الأقاليم والبلدان التابعة لنفوذها تختلف باختلاف طبيعة العلاقة التي تربط البلد أو الإقليم بالدولة الآشورية والحكومة المركزية³³، والهدف من ذلك تقوية السلطة الملكية، والحدّ من النفوذ المتعاضم للأمرء الكبار، وتَمثّل ذلك في مضاعفة عدد المقاطعات في الدولة، وتصغير حجم رقعتها³⁴.

خلال العصر الآشوري الوسيط، تولى حكم البلاد قادة كبار وملوك أقوياء أمثال "أشور أوباليط" (1330-1365 ق.م)، و"أدد نيراري الأول" (1275-1307 ق.م)، و"شلمنصر الأول" (1245-1274 ق.م)، و"توكلتي نورتا الأول" (1208-1244 ق.م) الذي استطاع أن يخضع بلاد بابل في عهد ملكها الكاشي "كاشتيلياش الرابع"³⁵.

مارس الملوك أو السلطة عملية الإخضاع بشكل عام، ولكي يستطيعوا أن يمارسوا دورهم الوحدوي بعيداً عن المقاومة أو المناهضين لهم، فعلى سبيل المثال أخضع الشعب العراقي القديم لما يعرف بقاعدة التفويض والاختيار الإلهي التي تجعل من الملك والملوكية من الأشياء المقدسة التي يصعب تناولها والحديث عنها ومعارضتها، لأنها غُلِّفت بإطار ديني، لِمَا للدين من تأثير قوي على الشعوب القديمة بصورة عامة، محاولة السلطة تأكيد هذا المفهوم منذ بداية العمل السياسي في العراق القديم³⁶.

وكما سعت السياسة الآشورية خلال عصرها الحديث إلى إلحاق المدن التي ضمّها الجيش ببلاد آشور، من خلال بناء القصور الملكية على أراضيها، فقد اتخذت مقرات سياسية للملك الآشوري نفسه، بُغية استقبال الوفود الرسمية لمدن الشرق الأدنى القديم، واستلام الإتاوات منهم، وكذلك هدَفَ الملوك الآشوريين من اتساع خارطتهم السياسية من خلال ضم هذه المدن هو تعيين الحكام المواليين لها ولإدارتها، وتنفيذ السياسة والأوامر الملكية الصادرة من العاصمة الآشورية، فيما يتعلق بسير أعمال العمارة والبناء ومراقبة الحكام ومحاسبتهم على أي تقصير قد يحدث، وقد قام أغلب الملوك الآشوريين بنصب تماثيلهم بعد الانتهاء من أعمالهم المعمارية، وتدوين انتصاراتهم التي تحققت على البلدان المجاورة إيذاناً من الملك الآشوري بأن المدينة صارت من أملاكه، وعلى أهاليها أن يتعايشوا مع تمثال سيدهم الجديد، فإقامة هذه

التمائيل وتدوين النصوص عليها يؤكد أنّ الفنان والكاتب كانا يرافقان الجيش الأشوري بدليل تنفيذ أعمالهم في المناطق التي حققت فيها انتصارات³⁷.

كان لغالبية الملوك أيضاً حملات تأديبية يقوم بها في كل عام من سنى حكمه، وقد دونوا أخبار الحملات في وثائق من طين سجلوا عليها انجازاتهم، ولقد كانت المدن المنتشرة في السهوب الواقعة إلى الشرق من دجلة مثل نينوى وكالح وأربيل وأريخا تعج بالحركة والاستعداد والاستنفار لهذه الحملات، واشتهر الأشوريون كذلك بميزة حضارية أخرى نلاحظها في نينوى بإحاطتها بالأسوار³⁸.

ومما يدل على الدور البالغ للجيش الأشوري في المجال السياسي ما ورد في سفر النبي "إشعيا" من استخدامات للتعبير البليغة بأنه "26 يَرْفَعُ رَايَةً لِلْأَمَمِ مِنْ بَعِيدٍ وَيَصْنَفِرُ لَهُمْ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ فَإِذَا هُمْ بِالْعَجَلَةِ يَأْتُونَ سَرِيعاً. 27 لَيْسَ فِيهِمْ رَازِحٌ وَلَا عَاثِرٌ. لَا يَنْعَسُونَ وَلَا يَنَامُونَ وَلَا تَنْحَلُّ حُزْمُ أَحْقَائِهِمْ وَلَا تَنْقَطِعُ سُيُورُ أَخْذِيَّتِهِمْ. 28 الَّذِينَ سَهَامُهُمْ مَسْنُونَةٌ وَجَمِيعُ قَسِيَّتِهِمْ مَمْدُودَةٌ. حَوَافِرُ خَيْلِهِمْ تُحْسَبُ كَالصَّوَانِ وَبَكَرَاتُهُمْ كَالزَّوْبَعَةِ. 29 لَهُمْ زَمْجَرَةٌ كَاللَّبْوَةِ وَيُزْمَجِرُونَ كَالشَّيْبِلِ وَيَهْرُونَ وَيُمْسِكُونَ الْفَرِيسَةَ وَيَسْتَخْلِصُونَهَا وَلَا مُنْقَذَ. 30 يَهْرُونَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَهَدِيرِ الْبَحْرِ. فَإِنْ نُظِرَ إِلَى الْأَرْضِ فَهُوَ ظِلَامٌ الضِّيقِ وَالنُّورِ قَدْ أَظْلَمَ بِسُحْبِهَا"³⁹.

نجد مجهود الدولة الداخلي في حد ذاته يحدد من ناحية نوع معين من الوحدة على الأقاليم التي تضمها حدودها بحيث تصل إلى أقرب الصور من الوحدة الدينية والاجتماعية والسياسية الاقتصادية، ويتضح مدى دورها الخارجي من خلال العمل على ولاء سكان أقاليمها المختلفة لها، وتجعل هذا الولاء يطغى على ما قد يشعر به سكان هذه الأقاليم أحياناً من روح إقليمية ضيقة، إذ نادراً ما يقتصر الوحدة على إقليم يسوده التجانس، لذا يتطلب من الوحدة السياسية بذل المجهود لتوسيع وحدتها الجغرافية بين أقاليمها المختلفة، وغالباً ما يقابلها في ذلك مشاكل طبيعية كوجود الجبال أو صحاري أو تباعد أطرافها أو مناطق خالية من السكان أو مشاكل بشرية مثلاً كتعدد النواحي اللغوية والدينية، فضلاً عن المشاكل الاقتصادية⁴⁰.

كما كان الملوك الأشوريون الأوائل قساة، فكلما وُجد عصيان يقومون بقمعه، وكلما وجدت معارضة يسعون لإحباطها، حيث وضح آشور بانيبال على سبيل المثال هذا التبرير لأعماله في نقوشه⁴¹ حول الوضع العام المحاك ضد سياسة الوحدة خلال عصر آشور بانيبال وما تركه من حوليات تمثل بدورها بعض المراسلات الرسمية والوثائق التجارية والصلوات والأدعية الموجهة للآلهة، وتحتوي أناشيد تشير إلى الحالة المؤلمة لسياسة الوحدة تبعاً للنص الذي يقول: "على وجه الأرض هناك الاختلافات وفي القصر

هناك النزاع، وهذه النزاع وهذه الحالة تؤلمني وتلازمني ولا تبرح جانبي، والعصيان والمؤامرات الشريرة تحاك باستمرار ضدي⁴².

ثم إن النصوص المسمارية التي تحدثت عن الملوك الآشوريين بصفة عامة وعن سرجون الآشوري بصفة خاصة، تبين أن شغلهم الأكبر في فترات حكمهم هو اعمام السلام في أرجاء دولتهم، حيث ساهمت عدة عوامل في عدم الاستقرار نظراً للظروف التي مرت عليها، واضطر بعض ملوكهم إلى القيام بهجمات استباقية لمناطق كانت تتذر بالتمرد والعصيان، كما هو الحال مع سرجون الثاني الذي كان يدرك أن السلام لا يمكن تحقيقه أحياناً بدون قتال⁴³.

ولعل عملية الإطاحة بالآشوريين قد بدأت حين استطاع أحد حكام الأقاليم "تابوبولصر" أن يوحد مجموعات المنشقين عن حكم الآشوريين، ويبدأ ثورة ضد هؤلاء وفي سنة (612 ق. م) تم الاستيلاء على العاصمة الآشورية⁴⁴ نينوى الواقعة على ضفاف الفرات⁴⁵ والتي اعتبرها أيضاً ديودور الصقلي "من أهم المدن المحصنة على غرار باقي المدن المجاورة لها، وذلك بسبب التحصينات العسكرية والمعدات الحربية لهذه المدينة"⁴⁶ وانتهى سلطانهم، وخلف "نبوخذنصر" والده "تابوبولصر" الذي حكم حتى حوالي (526 ق.م)، وبعد زوال آخر مظاهر السلطة الآشورية، وجد الكلدانيون أنفسهم سادة المنطقة بلا منازع، وبدوا يحكمون إمبراطورية متعددة الأقسام كانت أعظم ما شهدته منطقة الشرق الأدنى القديم، وصار يعد هذا الإنجاز بالطور الحضاري الرابع في بلاد الرافدين، تطلع الكلدانيون فيه إلى إعادة أمجاد وعظمة أسلافهم البابليين القدماء من خلال إحياء شريعة حمورابي وبعث الملامح الرئيسية للنظام السياسي من جديد الذي كان سائداً في بابل القديمة⁴⁷.

ويعزو الباحثون المعاصرون أسباباً عديدة أدت إلى سقوط الدولة الآشورية منها أسباب اقتصادية وفساد الإدارة في الفترة الأخيرة من تاريخها واستنفاد الجيوش العسكرية لإمكانيات الدولة المختلفة ومجيء ملوك غير ضعاف للعرش وتدخل النساء من الملكات والأميرات الآشوريات في شؤون الحكم وكثرة المؤامرات والدسائس داخل القصر الملكي الآشوري وأسباب أخرى غيرها كان من شأنها أن تضعف من سياسة الوحدة الآشورية⁴⁸.

7. اللغة السياسية للآشوريين

ظل العراق القديم على حد تعبير سلم مطر، منذ انبثاق الدولة الواحدة ورغم المنافسة بين السلالات عبر تاريخه القديم، فقد كان موحداً لغوياً (اللغة السومرية، ثم اللغة الأكادية بلهجاتها البابلية والآشورية)، كما بقي موحداً سياسياً حتى في ظل الدول الأجنبية الدخيلة⁴⁹.

الهجرات الجزيرية وإسهاماتها السياسية في بلاد الرافدين: "الأشوريون أنموذجاً"

في هذا الصدد تشير لغة الآشوريين إلى أصولها السّامية، فقد تحدث القوم بلهجة من لهجات اللغة الأكادية، وهي اللّغة التي انتشرت منذ أواسط الألف الثالثة وحتى أواخر الألف الأولى قبل الميلاد، واستخدموا الخط المسماري ذاته الذي أبدعه السومريون وطوّره الأكاديون والبابليون، كما اتصفت معتقداتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من نظمهم المختلفة بالصفات العامّة التي اتصفت بها مثيلاتها عند بقية سكان بلاد الرافدين، حتى بات من الصعب التمييز بين أصول العناصر المختلفة من سومرية وأكادية وبابلية وأشورية⁵⁰.

على ضوء ما سبق يمكن القول أن الآشوريون استخدموا لغتهم خلال عصر نفوذهم السياسي مثلما حدث في العصور السالفة، إذ كلما حكمت أمة من الأمم بلاد النهرين سياسياً إلا وتفرض لغتها.

8. المعبودات السياسية للآشوريين

عثر في آشور على معابد لبعض المعبودات، مثل " آشور - أنو - أدد"، وكان الإله آشور عندهم كبير معبوداتهم، ويدعى إشرا (E.shra-ra) وجعلوا له زوجة تسمى "ننليل"، وقد بُني المعبد خلال حكم الملك "شمشي حداد الأول" (1781-1813 ق.م)، ويعتبر من النماذج الأساسية في تفسير عمارة المعابد الآشورية، وقد جمع بين الطرز المعروفة في جنوب الرافدين، التي كانت تُبنى على هيئة بيوت ذات فناء في الوسط ومنها معبد "شوسن" في تل أسمر، وبين الطروز التي عرفت في فجر الأسرات ذات الغرف المقدسة الطويلة⁵¹.

9. خاتمة:

خلاصة القول، أن البيئة الطبيعية والجغرافية في مجال الوحدة لم تكن الوحيدة أو الأساسية في هذا المجال للتفكير في صياغة وحدة سياسية عامة، وإنما سعت الوحدة السياسية الآشورية التي تبناها حكامها بأساليبها المختلفة في بلاد النهرين إحداث انبعاث وتجديد لوحدة الحضارة العراقية القديمة على الساحة المحلية وعلى امتداد الشرق الأدنى القديم، وقد يتعداه أحياناً أخرى، إذ كوّنت حالات الانقسام والصراعات المحلية والتدخلات، ومنها الأجنبية الانبعاث من مرحلة تاريخية إلى أخرى، ويبدو لنا أن هذه الوحدة كانت مغروسة في نفوس السكان، ومنها الاعتزاز بوحدتهم التي بعثت الحماس، فكانت غالبية العهود التاريخية للآشوريين مُحفزة تحمل وراء بعضها البعض أجيالاً يحافظون على هذا الشعور بالوحدة، بل تعميمه على خارج مناطقها حسب ما يقتضيه الحال والوضع.

الهوامش:

1- Georges roux, **La mésopotamie Essai d'histoire politique économique et culturelle**, éditions du Seuil, paris, 1985, p168.

- 2- أحمد أمين سليم، دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم "العراق - إيران - آسيا الصغرى"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000، ص255.
- 3- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة "تاريخ العراق القديم"، ط2، دار المعلمين العالمية، بغداد، 1955، ص166.
- 4- ظهرت تسمية (الساميين) للمرة الأولى عام 1781م في دراسة قام بها المستشرق الألماني (شلوتزر-Schlozer)، وقد أخذها عن التوراة التي ترجع الخليقة إلى آدم وذريته، ومنهم سام وحام ويافث أولاد نوح، مبيناً أنّ البشر كانوا على لسان واحد، ثم تفرقت الألسن بتفرق أنسال هؤلاء الأبناء على مختلف مناطق العالم، للمزيد أنظر: توفيق بّرو، تاريخ العرب القديم، ط2، دار الفكر، دمشق، 1996، ص39.
- 5- أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص256.
- 6- Hérodote, **Histoires**, Livre I, traduit par: Legrand, Les belles lettres, paris, 1932, p178.
- 7- Strabon, **la géographie de Strabon**, livre XVI, trad par: Amédée Tardieu, Hachette, Paris, 1880, p298.
- 8- محمد بيومي مهران، المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم، ج 2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999، ص210؛
- Georges roux, Op.Cit, p168.
- 9- نبيلة محمد عبد الحليم، معالم العصر التاريخي في العراق القديم، دار المعارف، الإسكندرية، 1983، ص 12.
- 10- رضا جود الهاشمي، "أصالة الحضارة العراقية القديمة وتأثيراتها"، مج8، مجلة جمعية المؤرخين والآثاريين في العراق، مطبعة الأمة، بغداد، 1990، ص28-29.
- 11- محمد أيوب الشناوي، الدين في الحضارات الشرقية القديمة وأثره على الديانات السرية والفلسفية لدى اليونان، ط1، دار الحضارة للنشر والتوزيع، مصر، 2002، ص111.
- 12- نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص206؛ Georges roux, Op.Cit, p168-169.
- 13- أسامة عدنان يحيى، "بلاد آشور في عصر فجر السلالات"، مجلة كان التاريخية، ع/6، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2009، ص50.
- 14- قيس حاتم الجنابي، تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط1، دار صفاء، عمان، ص ص 144-147.
- 15- ف.دياكوف/س.كوفاليف، الحضارات القديمة، تر: ناسيم وكيم اليازجي، ط1، ج1، دار علاء الدين، دمشق، 2000، ص180.
- 16- نبيلة محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص207.
- 17- أنطوان مورتكات، تاريخ الشرق الأدنى القديم، تر: توفيق سليمان، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1967، ص129.
- 18- توفيق سليمان، دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة من أقدم العصور إلى عام 1190 ق.م "بلاد النهرين - بلاد الشام"، ط1، دار دمشق، 1985، ص162.
- 19- فوزي رشيد، سرجون الأكادي أول إمبراطور في العالم "الموسوعة الذهبية"، ط1، دار الثقافة، بغداد، 1990، ص80.
- 20- حلمي محروس إسماعيل، الشرق العربي القديم وحضارته "بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة"، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ص68.
- 21- توفيق سليمان، المرجع السابق، ص163.
- 22- حلمي محروس إسماعيل، المرجع السابق، ص68.
- 23- Leo Oppenheim, **Ancient Mesopotamia-Portrait of a Deal Civilization**, The University of Chicago Press, U.S.A, 1977, p163-164.
- 24- عامر سليمان، العلاقات السياسية الخارجية، حضارة العراق، ج2، دار الحرية، بغداد، 1985، ص121.
- 25- Marc Van De Mieroop, **A History of the Ancient Near East (3000-323 BC)**, Second Edition, Blackwell, U.S.A, 2007, p85.

الهجرات الجزيرية وإسهاماتها السياسية في بلاد الرافدين: "الأشوريون أنموذجا"

- 26- اسم هؤلاء القوم الجدد من الكلمة البابلية "كشو" التي لا يعلم أصل اشتقاقها بالضبط، ولعلها تعنى القوة والبأس، ويحتمل كذلك أنها مأخوذة من الإله القومي للكشيين، كما لا يعرف أصل هؤلاء الكشيين على وجه التأكيد، أما موطنهم التي نزحوا منه فيرجح أنه كان في مكان ما من الأجزاء الوسطى في جبال "زاجروس" - الفاصلة بين العراق وإيران -، ولعله يمكن تحديده في المنطقة التي تعرف باسم بلاد لورستان في الجهات الجنوبية من إيران، وكان يجاورهم من جهة الشمال أقوام جبلية منهم (الجوتيون واللوليو) ، والمرجح أن يكونوا هم من القبائل الجبلية الذين ورد ذكرهم في المصادر الكلاسيكية باسم "كوساي - Kossaioi"، وفي شأن وصفهم يلاحظ أنهم يرتدون قمصاناً ذات أكماف طويلة وضيقة ويضعون فوقها نوع من الملاقع المزركشة ذات الألوان المتعددة... الخ، للمزيد أنظر: طه باقر، **مقدمة في تاريخ الحضارات "الوجيز في تاريخ حضارة واد الرافدين"**، ط1، ج1، دار الوراق، بيروت، 2009، ص 493؛ نجيب ميخائيل إبراهيم، **مصر والشرق الأدنى القديم "حضارة الشرق القديم العراق وفارس"**، ط2، ج6، دار المعارف، لبنان، 1967، ص18.
- 27- محمود شاكر، **موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الأمم**، ج1، دار أسامة، عمان، 2002، ص104-105.
- 28- حسن محمد محي الدين السعدي، **في تاريخ الشرق الأدنى "العراق-إيران-آسيا الصغرى"**، ج2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995، ص157-158.
- 29- بهنام أبو الصوف، **العراق وحدة الأرض والحضارة والإنسان**، سلسلة آفاق، ج1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1993، ص19.
- 30- Léon Homo, **histoire D'orient**, Librairie Arthème Fayard, Paris, 1945, p78.
- 31- سامي سعيد الأحمد، **الإدارة ونظام الحكم "حضارة العراق"**، ج2، دار الحرية، بغداد، 1982، ص27.
- 32- نعيم فرح، **موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي**، دار الفكر، دمشق، (د.ت)، ص56.
- 33- محمود شاكر، المرجع السابق، ص127.
- 34- حلمي محروس إسماعيل، المرجع السابق، ص84.
- 35- باسم ميخائيل جبور، **ملاحم تاريخية من الأدب الأكادي، الهيئة العامة للكتاب، بغداد، (د.ت)، ص8-9.**
- 36- حسين سيد نور جلال الأعرجي، **الخطاب السياسي في العراق القديم (3000 - 539 ق.م)**، رسالة ماجستير، جامعة واسط، بغداد، 2005، ص30.
- 37- أحمد زيدان الحديدي، **"منجزات الملوك الأشوريين العمرية في البلدان اللامجاورة ما بين 911-612 ق.م"**، مجلة الدراسات التاريخية، ع/5، الجزائر، 2013، ص36.
- 38- الإدارة الثقافية للأمانة العامة لجامعة الدول العربية، **المعالم الأثرية في البلاد العربية**، ج1، مطابع مذكور، القاهرة، 1970 ص9-10.
- 39- سفر إشعيا: (5: 26-27-28-29-30).
- 40- عدنان صافي، **الجغرافية السياسية بين الماضي والحاضر، منشورات مركز الكتاب الأكاديمي، الإسكندرية، 1999، ص134.**
- 41- هاري ساكرز، **عظمة آشور**، تر: خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2011، ص159.
- 42- هاري ساكرز، **عظمة بابل**، تر: خالد أسعد وأحمد غسان سبانو، ط1، دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2008، ص154.
- 43- نبيل نور الدين حسين، **أثر الاعتقاد الديني على شخصية الملك "شرو-كن الثاني" سرجون الأشوري**، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، ع2، بغداد، 2010، ص249.
- 44- ملكة أبيض، **التربية في الوطن العربي "منظور قومي تاريخي"**، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011، صص24-25.
- 45- Diodore de Sicile, **Bibliothèque Historique**, tra par M.Ferd.hofer, tome1, Charpentier -Librairie-éditeur, Paris, p115.
- 46- Loc.Cit, p118.

- 47- ملكة أبيض، المرجع السابق، ص ص 24-25.
- 48- . A.T.Olmsted, **History of Assyria** ,The University Chicago, U.S.A , 1960, pp 410-435.
- 49- سليم مطر، العراق سبعة آلاف عام من الحياة "تاريخ مختصر وشامل من العصر الحجري حتى العصر الحديث"، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013، ص34.
- 50- محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم "تاريخ العراق القديم"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990، ص ص 325-326.
- 51- محمد بيومي مهران، (المدن الكبرى في مصر...)، ج2، المرجع السابق، ص210.